مذكرات عمر بين التوهج والرماد (٢)-(عوالم صغيرة مفتوحة)

د. طيب تيزيني*

كان جو المنزل الذي شبّ فيه الصبي مفعماً بأصداء الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية والفنية والثقافية. وأخبار الحرب العالمية الثانية تتقاطع مع أخبار الدعوة أو التهيئة لحرب محلية جديدة يعلم الصبي لاحقاً أنها «حرب مقدسة»، لأنها ستقع في فلسطين ضد فئات من الناس راحت -بالاستقواء بدولة أو بدول كبيرة- تحاول السيطرة على فلسطين وإخراج سكانها منها. وراح الصبي يدرك أن أمراً مشؤوماً ما سيحل بمدينته وببعض أهله. فلقد كان يعرف أن عمه نور الدين يعيش في حيفا،

---

* مفكر وفيلسوف سوري.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

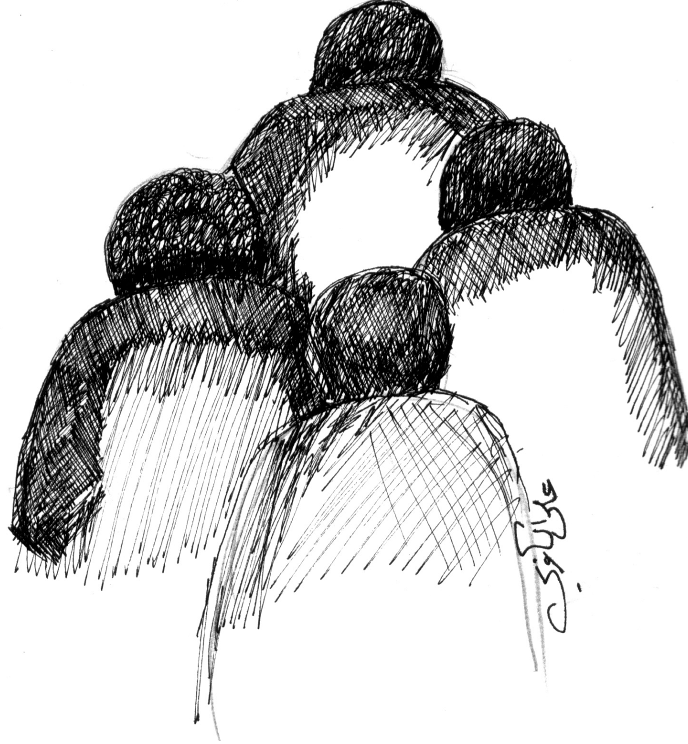


ويسمع منه في أثناء زيارته حمص، أفكاراً وآراء يُشتم منها أن الطريق الآخر من سكانها الذين هم اليهود كانوا -في معظمهم- يزعجونه وينظرون إليه باستعلاء وريبة. وقد كانت الدعوة للتطوع في «جيش الإنقاذ» بقيادة فوزي القاوقجي، قد علم بها أهل حمص، تهيئة للسفر إلى بطاح فلسطين، ومنازلة «أعداء العروبة والإسلام». واتُفق على أن تكون نقطة التقاء المتطوعين في ساحة البلدية. وكان ذلك، حيث جاءت أرتال من الشباب تطالب بالسفر إلى فلسطين. أما الصبي الذي شاهد الموقف وكان جزءاً منه، فلم يلحظ -فيما بعد- أثراً عملياً لتلك الدعوة، إلا بصيغة جعلت الصبي يشعر بخيبة أمل.

وكان «المنزول» و«المنتدى» في بيته، وخصوصاً الأول منهما، يعكسان أصداء خيبة الأمل عندي. وتجلّى ذلك في المساجلات والمناقشات والمناكفات، التي انتقلت من الرجال إلى النساء واليافعين، ويلفّها حالة من القنوط والشكوى والإدانة. وكانت جموع غير قليلة من أولئك قد طفقت تصوغ ما سيصبح خطاب الإخفاق والإدانة الفلسطيني العربي، ولكنّ بنبرة دينية إسلامية تقريعية، سيجري اختراقها شيئاً فشيئاً من موقع مرجعية عروبية تستلهم بطولات العرب التاريخية، وتدعو لإحياء ذكراها وجعلها حافزاً في «معركة فلسطين». وقد أتى قرار تقسيمها أولاً، وتأسيس إسرائيل على أرضها ثانياً، ليثيرا حالة من الكآبة والغضب، ولّدت دعوة للعودة إلى الدين، أو بالأحرى للوقوف بقوة أكبر في وجه مظاهر الحداثة في أشكالها وتجلياتها الأولى، التي اعتُقد أنها تُفضي إلى «اللادين».

ومع أواخر النصف الثاني من الخمسينيات الفائتة فصاعداً (وكان عمر الصبي قد ناهز التاسعة من عمره)، راح يُفصح عن نفسه حال جديد، أخذ يقرأه فريق واسع من الناس على أنه تعبير عميق عن «عقاب» لـ «الأمة» على ثلاثة أمور، هي التفريط بفلسطين، والتفريط بـ «الدين القويم»، والسماح بتلقّف بعض مظاهر الحداثة الغربية مثل السّفور للمرأة والاختلاط بين الجنسين ودخول المرأة حقول التعليم العالي والعمل والمشاركة السياسية والنقابية، وإنّ بحدود أولية ومبعثرة. لم يكن لهذه «الاختراقات» أن تمرّ دون توقف من قِبل أطياف من المجموعات المسلمة، وخصوصاً منها من كبر في الإطار التاريخي العثماني ذي اللكنة الإيديولوجية السلطانية، وكذلك مَن راح يُقايس بين ذلك الإطار وبين ما تلاه من مراحل أصبح على رأسها الفرنجة بعلمانيتهم «اللادينية» كما قيل وفُكّر، وبنزعة معظمهم

المركزية الاستعلائية، و بمطا معهم الاستعمارية الصريحة.



كان ذلك مادة جديدة لحياة «المنزول التيزيني» في حيّ جمال الدين، كما سماه بعضهم. وليس هذا فحسب بل تحول الموقف منه إلى معيار تُقاس به الأشياء. وبكيفية محددة، راحت أوساط كثيرة من المجموعات المذكورة –وهي المتحدرة في معظمها من شرائح واسعة من الفئات الوسطى ومن قاع المجتمع السوري الفقيرة والمفقرة إضافة إلى بعض الفئات الثرية المدينية والريفية– نقول راحت تلك الأوساط وخصوصاً منها من كان يحمل شخصية مخضرمة، تعيش حالة من الانكفاء إلى الذات «الدينية» أو «الحضارية» أو «القومية».

أما النمط الأول من حالة الانكفاء المذكورة –وهو الديني– فكان أكثر سرعة في التوضع والانتشار ضمن واقع الحال السوري المرهق في كرامته. أما ردود فعل والدي فقد انطلقت من المرجعية الدينية، المُصلَّبة بأحاديث وعظية ذات نزوع إلى الحنين للحضارة الإسلامية (العربية). وقد تجلى ذلك في أحد الأيام الأولى من المأساة الفلسطينية، بعد صدور «قرار التقسيم». فلقد عدتُ إلى المنزل من نزهة سريعة مع بعض

أصـــدقائي اليافعين، وبيدي كتابان أو ثلاثة كتب مترجمة اشتريتها من «مكتبة السباعي» لصـــاحبها القاص الشـــهير، في حينه، مراد السباعي. ولعل والدي كان غاضباً مضطرباً، فبـــادرني بالقول: والله، ســـيدخل اليهود في محاجركم! وأظن أني فهمت مصـــدر غضب الوالد واضـــطرابه، حين مّيزتُ بين غضـــبه هذا الذي أتى مُثقلاً بنظرات حزينة ومُختَرقاً بصـــوت متقطع يكاد يكون فحيحاً مرّاً؛ وبين غضـــب آخـــر كان يُظهـــره حيـــالي أو حيال أخواتي أو إخوتي، حين يرى تقصيراً أو آخر منّا. كان الرد على خذلان العرب في المســـألة الفلســـطينية ذا مرجعيـــة دينية، وذا وظائف وأبعاد سوسيو ثقافية. ولكنني كنتُ حذراً في تقبل مرجعية ذلك الردّ، وإن أتت ملفّعة بتلك الوظائف والأبعـــاد. كنت أبحث عن مرجعية أخرى أكثر عمقاً وشـــمولاً، دون إقصاء ذلك. ربما كان الفعل السياســـي كامناً في خافيتي الفتية بمثابة المدخل إلى فحص المسألة. ولكن مـــا أطلقه والدي في قولـــه التحذيري المأتي عليه، كان لحظة استرجاعية حافزة له، وهو الآن رغبة لي في اســـتعادتي سيرتي الصغيرة الفتية، حين راح وعْيي الباكر يأخذ توضعاته ضمن الحقل الديني واحتمالاته وآفاقه، التي أتيت علـــى تجلّيين لها بالعلاقة مع «المنزول» و«المنتدى».

☆ ☆ ☆

حين أســـهبت بعض الإسهاب في الحديث عن مســـاري الذاتي في بداية التحدث إليكم، كان أمر ما يشـــدني إلى ذلـــك، وهو الدخول في مرحلـــة وعيـــي الأول، الـــذي قد يصـــح الاصـــطلاح عليه بـــ «وعي الرضـــاعة». أما هذا الأخير فيســـتمد نســـغه التكويني الباكر –في المجتمـــع الذكوري– من الوالد أولاً. وقد أخـــذ ينســـج بنيته في الحاضـــنة، التي وجد نفســـه وجهاً لوجه أمامها. فكأنه (أي الوعي المذكور) يمثل امتـــداداً لوعي الوالد، ووديعة ألقاها هـــذا الوالد في «قلب» ولـــده، وأتمنه عليها، مع رعايتها ذهنيةً ومسلكاً.

كان والـــدي متدينـــاً بحـــدود مرحلتـــه وعصره: متديناً بقدر ما يسوغ له هذا التدين العيش في عصـــره، وعصرياً على نحو يقاتل بمقتضـــاه من يحاول أن يزجّ بـــه في شرنقة مغلقة. أما علاقاتـــه بإخوته وأخواته فكانت حميميـــة، بالرغم من المناكفـــات التي كانت تنشأ بينهم. وبسبب من أنه كان أكبرهم، فإن منزلنا كان ملتقى العائلة الكبيرة، خصوصـــاً في أيام العطل الأسبوعية والأعياد والمناسبات الخاصـــة. إذ كان أعمامي وأبناؤهم وزوجات بعضـــهم يزوروننـــا، فيتســـامرون ويهذرون، وكذلك يتناقشـــون. وفي هذه الحال الأخيرة، ترتفع وتيرة النقاش وتنخفض، بحسب المسألة أو المشكلة أو الآية القرآنية موضوع المناقشة.

وثمــة عبارتان قرآنيتــان كانت تطفوان على الســطح غالباً، حين يتصــل الأمر بالعقاب وبالثواب. بل راح الصــبي الحدَث يكتشــف فيهما وفي عودتهمــا مراراً إلى محور الحوار الساخن، خصوصــاً بين والده وأحد أعمامه وهو جــلال، أهمية خاصــة ودلالــة مكثفة بالنســبة إلى المرحلة الانتقالية في سورية وما قبلها قليلاً أولاً، وبالنسبة إلى تطوره الفكري والمنهجــي والنفســي العاطفــي في المرحلة القريبة القادمة ثانياً. أما العبارتان المعْنيتان فهمــا: إن الله غفــور رحيم؛ إن الله شــديد العقاب.

فلقــد طفق الصــبي يدرك خصوصــية المرحلــة المذكورة ليس في ضــوء مــا كان ذا صلة بالتجربة السياســية الثقافية الفتية ما بعد الاستقلال فحســب. لقد راح يقرأ ذلك كذلــك في خيارات اســتراتيجية إرهاصــية تُطل ببعض إشــاراتها ومعالمهــا. كان جدالاً حــاراً وطريفاً بين والــدي ومع من يرى رأيه أو يتضــامن معه، وبين عمــي ومن يرى رأيه كذلــك أو يتضــامن معه. بل الحــق إنه كان جدالاً على سبيل المناكفة، غالباً ما كان ينتهي إلى موقف طريف يغمر الحضــور بالابتسام والهزل: كان العم في هذه الحال يلقي بنفسه على السجادة أو الحصيرة الممدودة في ساحة الدار، ويقوم بلفِّها على جسمه حتى تصل إلى باب المنزل الخارجي، حيث ينسلّ منها ويخرج من المنزل، بعد إلقــاء نظرات على الجميع، يعلن فيها نهايــة المعركة بمبدأ «لا غالب ولا مغلوب». وربما كان اثنان من أعمامي -وهما غالباً ما كانا حاضرين شــاهدين مع الموقف، أعني بهما العم حافظ والعم صــدر الدين- من أنصــار الوالد. أما لماذا، فالجواب حسب الحضور، المؤلف من الوالدة والأخ الأكبر غير الشــقيق (أديب)، ثم الأخت ســهام والأخين التاليــين عبد الودود وروحي (وهنا أُســقطُ أسماء أختيَّ زهيدة ووداد وأخي عبد المعطي، لأنهم غالباً ما كانوا غير ذوي حضــور بسبب سفر الأوليين بحكم الزواج -الأولى في دمشق والثانية في طرابلــس لبنان-؛ والثالث بحكم طفولته الأولى الباكرة).

كان الوالد يأخذ بفكــرة العقاب الإلهي، بينمــا كان العم يتبنى فكــرة الغفران الإلهي والرحمة، أما تعاطــف المذكورين مع الفكرة الأولى فلقد أتى -هكذا رأى الصبي الفتي- خوفــاً من تعاظــم بواكير الإخفــاق أمام ما ســيعتبر (العــدو التاريخي الصــهيوني) من طرف، واتّقاءً مــن التدفق الغربي الحداثوي الذي يســهم في ذلك الإخفاق وفي تكريســه. لقد تغلب الجانب الوطني والقومي والديني في الموقــف، في حين بدا الجانب الاجتماعي الثقافي الإصلاحي والتنويري ضئيل الحضور،

وغير في ذلك السياق، أما الصبي الفتي فكان يتجه نحو الجانبين، مع غياب وضــوح كافٍ عنده، فيما يجمع بينهما. وفي هذا، اســتعان الصبي بموقف أخويه عبد الودود الصحفي وروحي معلم المدرسة، اللذين لم يكونا يخفيان أهميــة الموقفين كليهما. وســوف يتعين على الصبي أن يعيش حزمة مفتوحة من الأحداث السياسية، مثل الاستقلال عن فرنسا وحجز الحريات مع الانقلابات العسكرية؛ والثقافية الفكريــة، مثل الحــوار حول «حريــة» المرأة عند قاســم أمين، وحول «حرية الإنســان» في الفكر الديني القرآني، والاعتزالي كما قدمه البغدادي في كتاب له حصــل عليه في مكتبة المنــزول وكان بعنــوان «الفَرق بــين الفِرق». وسيتصــاعد اهتمام الصــبي في وقت لاحق بقضــية الوجود الإلهي وبالحريــة، بدءاً بيد مع ظهــور الخلاف ثــم الصراع السياســي والإيديولوجــي بين الأطراف السياســية في حمص –وكانت هذه تعتبر مؤشراً على الحياة السياسية والثقافية في سورية–.

وبعد تسجيلي لفترة غير طويلة في «المعهد الإسلامي» بإدارة عبد المجيد الطرابلسي ذي التوجه الإســلامي، واستماعي لبعض خطب الجمعــة مــن قبل مصــطفى الســباعي في «الجامع الكبــير» –وكان مفوّهاً ومتدفقاً في صوغ الأفكار إضافة إلى حماسة مُغوية ومثيرة للعواطــف– كانت شخصــيتي تتلقى حوافز واســتفزازات ورغبات في السير بعيداً باتجاه أســئلة كبرى قريبة من المنظومات الفلسفية والسوســيولوجية. ولعــل ذلك قد أســهم في محاصرة الأجوبة الناجزة والقطعية، وساعد في التخلص من عدد كبير من أصدقاء وأقران المدرســة والشــارع، الذين كانوا يُطلّون عليّ وعلى آخرين بأفكار بدتْ لي كأنها نُسجت من إسمنت مسلح. وها هنا، راحت عملية التفارق بيني وبــين معظم هؤلاء تتضــح وتنمو، وإنْ بصيغ طفولية ســاذجة، وقد أخذت ألاحظ حالة في وســط أولئك الأقران الأصــدقاء لم أستطع إدراكها بعمق؛ تلك هي تحديد علاقة أفكار الناس بطــرُز حياتهم، وفيما إذا كانت الأفكار غــير ذات علاقة بنيوية بهذه الطرز، أي فيمــا إذا كان الأمــر متعلقاً بــ «فطرة» يُفطــر الناس عليهــا في اتجاهاتهم وميولهم ومطامحهم. وأضيف تســاؤلٌ آخر إلى عالمي الخاصــ، هو فيما إذا كانــت هنالك علاقة وثيقــة بين الثقافــة والاعتقاد وبــين الثروة والموقع الاجتماعي والسياسي. كان ذلك ينمو باطراد في شخصــيتي، بدءاً بيــد مع تعاظم وعيي الاجتماعي بالحالة التي جسَّدها جدّي لأمي. فقد كان شــديد الثراء بالمال والأطيان والجمال. فقد كانت مواســم السمن والزيت والصوف عامرة في حياته. وربما وصل عدد

الجمال المحملة والتابعة إليه -استئجاراً أو امتلاكاً- إلى خمسة عشر.

وبقدْر ما كان جدي هذا ثرياً ثراءً لعله يدخله في خانة متقدمة من إقطاع الأرض، فقد كان لطيفاً يداعب الأطفال، وعطوفاً يوزع أعطيات على فقراء الحي (وكان اسم هذا الأخير حي تحت المئذنتين الذي كان متاخماً لحيِّنا جمال الدين). بيد أني لم أجده زائراً في بيتنا، ولم أجد والدي كذلك زائراً في بيته الواسع. ولا أدري حتى الآن ما إذا كان ذلك بسبب موقف والدي من الثروة وتملّك الأراضي. ولكن المحقق أنه (أي الوالد) لم يكن -في تعامله معنا- يقبل أن يدخله ويدخلنا (مال حرام)، ولو كان شروى نقير. وفي هذا الموقف، كانت والدتي كالشمس في عطائها للفقراء ومحبتها لهم مما تتلقاه من والدها. أما في تكوينها الذاتي النفسي والعاطفي، فلعلها كانت أقرب إلى الصوفية، في وجهها التزهدي وفي دروشتها المحببة الرفيعة. وسوف يأتي يوم يجد الصبيّ -الشاب نفسه في حالة من النفور من التملّك حتى للحاجات الاستعمالية الضرورية. فكانت معظم حاجاته الاستعمالية تذهب إلى الفقراء في حيّه، لتخفف من صقيع الشتاء الذي كان، في بعض الفصول الشتوية، بمثابة مسامير تنفذ إلى أجسادهم النحيلة.

كان ذلك الموقف لدى الصبي الآخذ في الاتجاه نحو اليفاعة ثم الشباب الأولي المبكر، بمثابة عزاء له عن إثم كان يعتقد أنه يتلبسه. وسوف يتضح الأمر بالنسبة إليه، حين يدرك أن ما يمكن أن يقدمه للفقراء المتحدرين من المدينة والريف والذين كانوا منتشرين في المدينة وإن لم يظهروا علناً بدافع الكرامة الذاتية، لا يخرج عن أن يكون-بالأصل- ما لهم أو جزءاً من مالهم المسلوب منهم عبر آليات الاستغلال الاقتصادي، التي يقوم المجتمع عليها. وثمة حالة لم يتمكن الصبي استيعابها، وكان عليه أن ينتظر سنين وفيرة كي يستوعبها ويضعها في سياقها اللغوي والبسيكو ثقافي. فلقد كانت الوالدة قارئة قرآن مستديمة ومن الطراز الأول. ولكن ذلك لم يكن يعني أنها كانت تستطيع قراءة نص آخر. بل لم تكن تتمكن من قراءة اسمها وأسماء أبنائها وزوجها. وكان هذا الأمر يأخذ على الصبي أنفاسه، ويجعله أكثر اقتراباً من أمه الحنون، وأكثر حباً لها وحناناً عليها. ويتضح لديه أن هذا الموقف كان يقابله موقف آخر يستشعره لدى أمه. فهو يتذكر أنه كان حين يعود من الكتّاب (كتّاب الشيخ عبد السلام) وكان له من العمر ما ينوف على الست سنين، يجد نفسه منجذباً بقوة وتلقائية نحو ثدي أمه المُترع بالحليب السحري. ومن طرائف

الموقف أنه في أثناء ذلك كان يشم رائحة بصل في الحليب، فيعتب على أمه، التي كانت تجيبه بأنها لذلك، أي لتناولها البصل في طعامها، كان الحليب يتهادى إلى فمه غزيراً لذيذاً. وهذا ما جعل البعض يسمّون الصبي «ابن أمه».

لقد استظل الصبي بظل حنان أمه الفريد (واسمها ما يزال يُحدث في أذن ابنها حالة من النشوة الممتزجة بوهج متدفق من الأسى والحنين). من أمه هذه التي كان يراها شعلة من التقوى الصوفية الحادة، التي جعلتها لاحقاً ترفض النظر إلى التلفاز، بل إلى ابنها في التلفاز وقد غدا رجلاً، خوفاً من خدش تصور الفرادة الإلهية التوحيدية. كانت سنيّة الجندلي ومصطفى تيزيني زوجين مثاليين بمقياس المجتمع الذكوري، هو أكبر منها بسنين ليست قليلة. وإذا كانت قد عاشت في شخص أبيها أريستوقراطية المال، فقد عاشت في شخص زوجها صفاء العقيدة وكبرياءها وإخلاص العمل القضائي. وثمة موقف كان يحول المنزل إلى واحة من المحبة والسكينة، وهو أن الوالدة بحسّها العاطفي العالي كانت تدرك أن وقت عودة الزوج الوفي من العمل قد حان، فتلجأ إلى الطبيعة الملونة والمزروعة في «أرض الدار» بصيغة أحواض وشجرة كرمة ضخمة. فتشك عنقوداً من الياسمين الأبيض على رأسها، لتترك وجهها البضّ الصافي يتحدث عن روعته حديثاً ذاتياً، أي بعيداً عن تدخّل ألوان الزيف الأسود والأخضر والأصفر والأبيض، وغيره.

ولقد تعمق شعور الصبي بالإعجاب بوالده، الذي راح يبدو له كأنه الطَّوْد في شرفه وكرامته وجهاره في مواجهة طغاة المال والسلطة. فكانت حادثة ربما عاش الابن بعض ذيولها وأصدائها، أو استقاها من «الناس» قبل الوالد، لتترك في شخصه أثراً عميقاً: كان الوالد الذي عاش في حدود الكفاية المادية الأولية، مديناً لأحد أصحاب المحال الاستهلاكية. وسدّد له ما عليه من دين في أوّل أحد الشهور. لكن صاحب المحل ظل يطالب الوالد بإيفاء الدين، بالرغم من وجود شاهدين على تسديد المبلغ. وفي أحد الأيام عاد الوالد من العمل، وكان عليه أن يسلك الطريق إلى البيت مروراً بالمحل المعني. فطالب صاحبه الوالد مجدداً بإيفاء دينه. وبلغة هادئة وحازمة، أعلمه ما كان قد أعلمه على امتداد أسابيع بأنه قام بذلك وهو يشكره مرة أخرى لذلك. فراح صاحب المحل يُطلق شتائم ثقيلة بحقه وفي حالة محتقنة ومتوترة إلى درجة عالية. وتابع الوالد طريقه، معتقداً أن الأمر وجد نهايته. ولكنه بعد حين قصير، سمع نداء من بعض الناس المارة: عُدْ أيها

الرجل، وأنظر ما حلّ بدائنك. لقد قتلته لقد مات غيظاً. نحن معك. نحن نعلم أنك رددت إليــه ماله. وذهب في المدينة مثلاً: كنا نعتقد أن المال يُذل، واليوم بتنا نرى كيف يُميت المالُ الحرام.

في ذلــك البيــت الأبــوي الأمومــي نما الصبي، ليكتشــف أن هذا البيت ليس مأوى يقيه صــقيع الشــتاء ولهب الصيف فحسب. لقد اكتشــف فيه الحوافز الذاتية والمتناهية باطــراد لاخــتراق العوائــق والمحظــورات نظراً وواقعاً، لكنّ بكثــير من التؤدة والتفكر والتحسب، وبقليل من الحماسة ومن حماقة الصــبيان والفتيان اليافعــين. وهذا ما ترك بصــمات كثيفة في ســيرتي تظهر خصوصاً في لحظات الانتقال مــن مرحلة إلى أخرى؛ دون التقليل من الصــعوبات ونقاط الضعف، التي كنت أواجهها وأقــف عاجزاً عن حلها، أو أتعامل معها في حــالات أخرى بتفاهة أو بأنانية أو سذاجة أو بتعنت.

والصبي يحسّ إحساساً ثقيلاً بأمر يرغب في الإفصــاح عنه وإفشــائه. فذلــك العمر الذي ربما تحرك بين السابعة والثامنة؛ وهو عمر مشــوب بأحــلام شــتى؛ والأب ثم الأم هما اللذان يمتلــكان مفاتيــح الدخول إليه والتأثير فيه. فكان الوالد، كما ســبق، يعيش عيش التقي المتعبــد، دون «قطع العلائق ما في أيــدي الخلائق»، على حد قول الصــوفي الكبير معروف الكرخي، الذي سيتعرف إليه لاحقاً بعمق. لقد كان حريصــاً على السماء مثلما على الأرض. وهو في هذا، كان حريصاً على إشراك الجميع وخصوصــاً الأقربين في عالمه الروحي الديني. وكنت واحداً من صغار هؤلاء. كنت أشــعر بســعادة حارة، حين كان الوالد يدعوني للنوم عنده فيما كان يســمى «القصر الصغير- وهو غرفة طولانية تتصل بالزقاق عبر درج يمتد منه إليه». وفي إحدى الليالي التي نمت فيها مع الوالد، استشــعرت دهشة ممتزجة بمرح، حين دعاني في الهزيع الأخير من الليل للذهاب إلى مســجد «الشيخ عمــر»، القريب مــن منزلنا، لتأدية صــلاة الصــبح «حاضر»، أي في حينــه بعد الأذان؛ و«جماعة»، أي وراء إمام يؤم المصلين. ذهبت مع الوالد وقمت بتأدية الصلاة مقتدياً بالإمام شــيخ الجامع، وبوالدي. وقد تتالت زيارتي لـ «الجامع» -وهذه اللفظة تظهر أكثر دلالة من لفظة «المسجد». فهنا «يسجد» الناس، وهناك يجتمعون، وكذلك يسجدون. وبكيفية فقدتُ فيها بعض لحظات المســار، تبرز إلى الذاكرة لحظة شــعرتُ حيالها باعتداء وثقة وببعض الحذر: لقد طُلب مني في ليلة تالية من ليالي الصلاة أن أصعد إلى رأس المئذنة وأقدم آذان الصــبح؛. عقب ذلك، ســمعت من الثناء من

بعض المصلين المشاركين ومن والدي والشيخ عبد السلام البنّي، ما جعلني أشعر بقفز الزمن، أي بأني «لم أعد صغيراً».

ولسببٍ أو لأسباب ما أجهلها حتى الآن، انقطعت زيارتي للجامع مع والدي أو لوحدي. ولكني قمت للصلاة في المنزل في ذلك الحين لوقت آخر لاحق. ولقد دخلتُ مبكراً في عالم الفكر عموماً والفلسفة على نحو خاص. وفي إطار التصاعد في هذا المسار، الذي راح يستهويني بقوة جاذبة، بدأتُ اكتشف بمتعة، رهانات واحتمالات متعددة لتلبية احتياجاتي وتطلعاتي الفكرية. وهذا ما سيتجلى – خصوصاً – في «المنزول» و«المنتدى»، اللذين أتى الحديث عليهما في موضع سابق. ولكن ما راح يؤرّق جزءاً من حياتي الأولية اليافعة أفصح عن نفسه، بعد أن أخذت أتعرف على ديكارت في ركيزتيه الاثنتين الكبريين، وهما الشك والعقل. فقد قرأت بعض ديكارت وقرأت حوله في كتاب صدر عام ١٩٥٤م للدكتور كمال يوسف الحاج، وكان عنوانه: رينه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة. فاقتنيته وأخذت أقرأ فيه، وأقرأ وأقرأ، لأنه كان صعباً على حدث مثلي. واقتنعت أكثر، حين قرأت لهيجل حول ديكارت وفي الكتاب نفسه. والرأي هو ما يلي (ص٥٧) من كتاب كمال يوسف الحاج): «ديكارت هو، حقاً، المؤسس الأول للفلسفة الحديثة، لأنه اعتمد في مذهبه على العقل.. إنه بطل من الأبطال، لأنه أعاد بناء الأشياء من البداية، موجداً للفلسفة من جديد، أرضاً حقيقية، أرجعها إليها بعد ضلالها ألف عام».

كان هيجل قد أدخلني «حلقة» ديكارت عن طريق الحاج. لقد شعر الصبيّ، الملحاح في أسئلته وتساؤلاته، ببوادر أزمة. إذ كيف يوائم بين والده والشيخ عبد السلام البني وروّاد «المنزول» عموماً وبين ديكارت وهيجل، خصوصاً أنه سبق وحطّ في منازل طه حسين وأبي العلاء المعري في شكّها العميق ودعوتهما الحازمة للعقل. ويبدو أن الأمر راح يتحرر في ذهن الصبي من بعض الغباشة، فأدرك أنه من ضرورات «فهم» مفكر أو فيلسوف أو كاتب إلخ أن يوضع في سياقه من الزمان التاريخي والمكان الجغرافي الإستراتيجي. ومن ثم، فإن مقارنات من ذلك الطراز بين رجال ونساء من عصر مع آخرين من عصر آخر، يمكن أن تقود إلى أغلاط غليظة في الحقل الفكري العمومي. أمّا من راح يمهد الطريق للقارئ الصبي لتمثل هذا الوعي المشخص، فكانا اثنين، ابن خلدون وكارل ماركس.

لقد تلقّفت كتاب «المقدمة» لابن خلدون، الذي كان مركوناً في مكتبة «المنزول» وأمعنت النظر في المسائل التي تناولها، وخصوصاً

منها ما تحدث عن «تغيّر الأحوال بسبب تغير الأزمان»، وعن «العلم» الذي ابتدعه، «علم العمران»، الذي يبحث في تغير الدول وفي تحولها وانتهائها. أما ماركس، الذي أخذ يواجهني بأفكاره بكيفية متوهجة مربكة، فقد جعلني أراجع حساباتي، حتى حينه، شيئاً فشيئاً، لأواجه نسقاً فكرياً ما عهدته من قبل، مع أنني كنت أشعر من خلال قراءاتي المتواضعة ولكن الجدّية، أن إلمامات وإشارات تنبث هنا وهناك تثير فضولاً وتأملاً عميقين، إنما دون أن تعِد بأكثر من ذلك؛ خصوصاً على صعيد «المنهج»، الذي يضع الأشياء في سياقاتها المتعددة، ويحيلها إلى مظانّها -وهذا ما كان قد كوّن أحد هواجسي. وسيلاحظ الصبي وقد راح يصير فتى يافعاً قريباً من الشباب، أن هذين المفكرين العالمين لا يصح أن يرى المرء في نفسه مثقفاً أو مفكراً إن لم يدخل عالميهما.

لقد أدرك الفتى اليافع أن ديكارت على الرغم من فضيلته العملاقة على صعيدي الفلسفة والرياضيات، بشهادة من هيجل الذي سيتعرف إليه لاحقاً على مسافة قريبة من ماركس وابن خلدون وابن رشد، ترك ثغرة عميقة في تفكيره الفلسفي- وهي ذات عمق ابيستيمولوجي كما سيقال في سنوات عديدة قادمة. أما خصوصية هذه الثغرة فقد تجلت في قيامها على «ثنائية» بين العقلي والإيماني، والطبيعي وما بعد الطبيعي. ويلاحظ الفتى أن في ذلك إمكانية قوية لنشوء شرخ عميق في منظومته الفكرية يتحدد في ثنائية «العقل العقلي» و«العقل الإيماني». لقد استنبط ذلك من شرح قدمه كمال يوسف الحاج في كتابه عن ديكارت، لنصوص ديكارتية. قال الحاج (ص٥٧): العقل لا يستطيع أن يصمد إلا في العلوم الهندسية، فإذا تجاوز هذه العلوم، قصّر في السير بعيداً، حينئذ يدخل الإيمان، وهو عقل أيضاً، ولكنه يسمو على المنطق الممثِّل، يصمد ليكشف لنا عن الماورائيات المحجوبة. وهذا الأمر حدا ببرغسون وباسكال أن يصلا إلى ذلك بطريقة أخرى، ولكنْ باسم وحدة العقل».

كان الفتى إزاء ذلك يدرك أن لحظة ما من لحظات التلفيق تحاصر فكر ديكارت. وقد كتب على ورقة منفصلة معبراً عن ذلك، بلغة فيها الكثير من الحسم الذي يكاد يكون ضارياً. ووضع الورقة في كتاب الحاج «رينه ديكارت»، وظل كلاهما محفوظاً في مقتنيات الفتى، بالرغم من السنين التي اغترب فيها في انكلترا وألمانيا لما يتجاوز عشر سنين. أما ما جاء في الورقة ويعود تاريخه إلى عام ١٩٥٤ فهو: «إن ديكارت وهو الملقب بـ «أبي الفلسفة الحديثة»، لا شك أنه يستحق هذا

اللقب. وإنما استحقاقه بهذا اللقب ينحصر في عصره وما تلا ذلك بقليل، بعد أن كان (الموت الأسود) سائداً في العصور الوسطى. ولكنه فقد هذا اللقب في عصورنا هذه.. لقد نادى بسيطرة العقل وبالاهتمام بـ (الإنسان) كأكثر ما يكون الاهتمام. ولكنه بقي منحصراً في حدود الغيبيات. وبحكم ذلك، جعل من الإنسان قاصراً، أو حّط من قيمته وانتقص منها، ليضع في (ما وراء الطبيعة)، لقد ملأ الحياة صخباً وضجيجاً.. باللامتناهي والمتناهي. فسقط بذلك تحت نير الاستعباد. وهو الذي كان يدّعي حرية العقل: فكأني به عالم مأسور».



إن تلك المنعرجات وخطوات التقدم المعقد والتراجع أو التباطؤ إلى درجة التراجع، لم يكن قاطعاً بقدر ما ظهر بمثابة خط من خطوط متعددة في حياة صبي، كان توّاً قد بدأ في هذا المسار. وسوف يستقر في ذهنه أن الأطفال اليافعين يجدون أنفسهم -عبر تكوّنهم السيكولوجي والقيمي والعقلي والعضوي- أمام خيارات متعددة مفتوحة، هي تلك الخطوط المعنية. ولم يدرك ذلك نظرياً في سنين لاحقة، إلا بعد أن مرّ ببعض هذه الخطوط، ومنها بكيفية خاصة خطوط التدّين، والحب مع التقحمّ العاطفي، والجموح الثقافي، والجنون الرياضي وخصوصاً منه رياضة الكرة، وقد سلك الصبي الخطوط الثلاثة الأولى مجتمعةً، وأسقط الخط الرابع، لكن دون إهمال ما اعتبره جزءاً تكوينياً لكيانه، وهو ممارسة الرياضة وفق المقولة التي سيضع يده عليها وهي: الجسم السليم في العقل السليم، والعقل السليم في الجسم السليم. لقد دخل الجحور الثلاثة السابقة، وعاش حالة من السجال الهادئ و«السلمي»معها، كانت وتيرته تتصاعد شيئاً فشيئاً، ولكنّ بكثير من مظاهر التعقيد والمناكفة والتأزم. أما الرجال الذين وقفوا إلى جانبه وقدموا له إسهاماً عميقاً في ضبط «الأزمة المستحكمة» به، فكانوا رينيه ديكارت الفرنسي وأبا العلاء المعري العربي وكارل ماركس الألماني، إضافة إلى ثلة من الكتاب والباحثين والمثقفين، الذين يتحركون حول أولئك، مع قليل أو كثير من خطوط التماس معهم، من أمثال خالد محمد خالد وسلامة موسى؛ ناهيك عن بعض آخر من المفكرين الذين سمع بهم عموماً في مرحلتيّ «المنزول» و«المنتدى»، مثل الإمام محمد عبده والمنوّر فرح أنطون.

وقد راح الصبي اليافع يستشعر الرغبة في الاقتراب من «سلمى»؛ وكانت من بنات الحي، اللواتي كان يعجّ بهن. وعمّق هذه

الرغبة بل الاتجاه نحو «العالم الآخر» الذي كاد يكون مغلقاً تماماً، أنه بدأ يكتشف أهمية القراءة الروائية والقصصية والمتعة الذاتية الجمالية، التي تولّدها وتحفز عليها. كانت القصة، ربما الأولى، التي قرأتها بمثل تينك الأهمية والمتعة وقد تُرجمت عن التركية –وكان الحصول على بعض مظاهر الأدب التركي في مكتبة «منزول» الوالد. لقد غابت عن ذاكرتي السرديةُ التفصيلية للقصة؛ ولكن فكرتين أساسيتين ظلّتا تمارسان دوراً جميلاً في خافيتي، الواحدة تقوم على التضحية في سبيل الوطن، والأخرى تؤسس لحب رقيق وعميق للمرأة مقترنٍ أو مخترق بهواجس الوطن وشؤونه. وكنت حريصاً على الاحتفاظ بالقصة المذكورة، ولكنها خرجت من المكتبة ومن المنزل، وغاب معها اسم مؤلفها التركي.

وقد كانت القصة المذكورة بمثابة تحريك عواطف مشتعلة ومختلطة بين الجمالي والفلسفي والثقافي والاجتماعي الطبقي. وكان «الملف العاطفي» قد فُتح على مصراعيه، إنما على سبيل الخطوة تلو الخطوة. كان ذلك «منحاً» جديداً هاماً بالنسبة للفتى السائر قدماً نحو الفكر والفلسفة والسياسة والحب؛ لكن –هنا– جملةً وعموماً. أصبحت اليفاعة عنواناً على تقحم الحي والمدينة والوطن، باتجاه العالم، عالم سيكتشف تخومه ودواخله، حين ينتقل إليه لاحقاً، ولكن ليس حالاً. لقد صنع لنفسه صورة للعالم، قبل أن يراه، كما كان المستشرقون الأوائل قد صنعوا صورهم عن الشرق. إذاً باتجاه الغرب، ولكن ليس بعهدة مستغرب! وحتى يتم ذلك، كان على الفتى أن يستكمل العملية التاريخية المفتوحة.

